جذور الغضب الإسلامي

لماذا يكره عدد كبير من المسلمين الغرب؟ ولماذا لا يمكن تسكين مرارتهم بسهولة؟

برنارد لويس

ترجمة: عبد الباسط منادي إدريسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018

جذور الغضب الإسلامي[1]

لماذا يكره عدد كبير من المسلمين الغرب؟
ولماذا لا يمكن تسكين مرارتهم بسهولة؟

المؤلّف: **برنارد لويس** (LEWIS Bernard)

المترجم: **عبد الباسط منادي إدريسي** (المغرب)

1- مصدر المقال

Lewis, Bernard. «the Roots of Muslim Rage.» *The Atlantic Monthly.* Sep1990; 266, 3. Pp. 47-60

مستخلص:

إنّ حنق المسلم على الغرب المُتعالي الرائد واقع معاش حسب برنارد لويس، لأنّ الإسلام لم يستسغ طعم الهزائم المتتالية لقيمه ولشريعته ولتقاليده بدءا بالعمل السياسي، مرورا بتحرر عبيده ونسائه وبنيه، وصولا إلى لباسه ومنتجات استهلاكه، ويعود الأمر في كلّ هذا إلى نمط الحياة الغربي الليبرالي المزهو الواثق من نفسه.

فعلى الرغم من إمبريالية الغرب وتمييزه بين الجنسين وتجارة الرقيق التي عرفتها إمبراطورياته الاستعمارية، إلاّ أنّ التاريخ سجّل سبقه في تحديد هذه الممارسات المُشينة وشجبها وإعلان المنع القانوني عليها وتفعيله لحظر ممارستها على المستوى الدولي، ويعود الفضل في هذا إلى فصله بين الديني والسياسي، حيث لا يوجد لدى دوله رغبة في نشر المسيحية بالإكراه. فبليبرالية الولايات المتحدة نبدأ وبها نُنهي مع لويس، لأنها استطاعت فرض الفصل بين الزمني والإلهي والكنيسة والدولة بقوة الدستور، وهذا أمر ليس غريبا عن المسيحية حتى في بداياتها.

أمّا الإسلام، فلم يكن يوما بحاجة إلى هذا الفصل، لأنّ شروط إمكانه لم تحصل، ويعود أصل هذا إلى طبيعة الإسلام، فهو دين الرسول الحاكم والجندي في الوقت عينه. قد يستغرق الوصول إلى الفصل بين الديني والسياسي وقتا أطول مما يتطلع إليه الغرب، والأحرى به أن يُراقب من على منصة المُتفرج ما يحدث في العالم الإسلامي، وأن يحترز لنفسه من التورط في شؤون الإسلام تجنبا لغضب المسلمين الأعمى، وحفظا لقيمه المزهوة. أمر لا نرى دليلا عليه في تاريخ علاقة الغرب بالإسلام، لكن هذا رأي لويس على كل حال.

****

لاحظ توماس جيفرسون في إحدى رسائله أنّ «شعار الحكومة المدنية» في مسائل الدين يجب أن يُعكس؛ أي أن نقول بالأحرى: «إن اتحدنا سقطنا، وإن تفرقنا سدنا.» كان توماس جيفرسون يبين باختصار كلاسيكي فكرة تُعتبر أمريكية محضة اليوم: فكرة الفصل بين الكنيسة والدولة. لم تكن هذه الفكرة جديدة تماما، لقد كان لها سبق في كتابات اسبينوزا، ولوك، وفلاسفة الأنوار الأوروبي. لكن مع هذا فقد كانت الولايات المتّحدة الأمريكيّة المكان الأوّل الذي مُنِح فيه المبدأ قوّة القانون، وأصبح بعدها واقعا معيشا بالتدريج على مدى قرنين.

ولئن كانت فكرة الفصل بين الدين والسياسة جديدة نسبيا، إذ يُقدّرُ عمرها بثلاثمائة سنة فقط، فإن فكرة استقلال الاثنين عن بعضهما البعض تعود إلى بداية المسيحية. فقد دُعِي المسيحيون في كتبهم المقدسة إلى «ترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله.» وفي صلب اختلاف الآراء حول المعنى الحقيقي لهذه الجملة، تمّ تأويلها كتشريع للوضع، حيث توجد مؤسستان جنبا إلى جنب، لكل منهما قوانينه وسلطته الهرميّة، إحداهما تهتم بالدين وتُدعى الكنيسة، بينما تهتم الأخرى بالسياسة وتدعى الدولة. وبما أنهما اثنتان، فمن الوارد أن تجتمعا أو تنفصلا، أو تعيش إحداهما في وضعية تبعٍ للأخرى، أو تستقلا عن بعضهما البعض، وقد تقوم بينهما صراعات حول مسألتي الحدود والصلاحية.

إنّ هذه الصياغة للمشاكل المطروحة التي تفرضها العلاقات بين الدين والسياسة والحلول الممكنة لهذه المشاكل، تنهل من مبادئ وتجربة مسيحيتين، وليس من قبل مبادئ وتجربة كونيتين. فهناك تقاليد دينية أخرى يُنظر من خلالها إلى الدين والسياسة بطريقة مختلفة، وتختلف أيضا المشاكل والحلول الممكنة لها بشكل جذري عما نعرف في الغرب. ورغم أن درجة التطور والتحصيل العالية جدا لديها، إلا أن معظم هذه التقاليد تبقى محلية، وتنتهي حدودها بحدود منطقة أو ثقافة أو شعب معين. لكن، هناك تقليد واحد رغم ذلك، وهو تقليد يمكن مقارنته بالمسيحية في انتشاره العالمي، وحركته المستمرة وتطلعاته الكونية، وهو الإسلام.

يُعتبر الإسلام أحد أعظم الديانات في العالم، دعوني أوضح ما أعنيه بهذا بصفتي مؤرخا غير مسلم للإسلام. لقد مَنح الإسلام السّلوى وراحة البال لملايين لا تُعدّ من النساء والرجال، ومنح الكرامة والمعنى لحيَوَات رتيبة وفقيرة، وعلّم الناس من أعراق مختلفة أن يعيشوا في تآخٍ تام، وعلم الناس بعقائد مختلفة أن يعيشوا جنبا إلى جنب في تسامح معقول، كما ألهم حضارة عظيمة عاش في كنَفِها الآخرون بجانب المسلمين عيشة خلاقة وذات معنى، وهي حضارة أغنت العالم كله بإنجازاتها. لكن شهِد الإسلام كما شهدت ديانات أخرى مراحل، حيث ألهم في بعض تابعيه الكراهية والعنف. إن ذلك الجزء كان من سوء حظنا نحن الغربيين

فعلا بطريقة أو بأخرى، فكل العالم الإسلامي أو معظمه يعاني في هذه المرحلة، ومعظم تلك الكراهية، وليس كلها موجه نحونا.

يجب أن لا نبالغ في تضخيم أبعاد المشكل. يبقى العالم الإسلامي بعيدا عن الإجماع في رفضه للغرب، ولم تكن المناطق الإسلامية من العالم الثالث الأكثر انفعالا أو الأكثر تطرفا في عدائها له. هناك أعداد متزايدة، في الغالب في مناطق بعيْنها، من المسلمين الذين نقتسم معهم بعض المعتقدات والتطلعات الثقافية والأخلاقية الأساسية. ولا زال هناك حضور غربي ثقافي واقتصادي ودبلوماسي مهيب في الأراضي الإسلامية، وبعض هذه البلدان يُعدّ حليفا للغرب. بالتأكيد لم يحدث في أيّ مكان من العالم الإسلامي، في الشرق الأوسط أو في أي مكان آخر أن عانت سياسة أمريكا نكبات أو واجهت مشاكل كتلك التي عانتها في جنوب شرق آسيا أو أمريكا الوسطى. ليس هناك لا كوبا ولا فيتنام في العالم الإسلامي ولا مكان، حيث يثبُتُ تورط القوات الأمريكية من مقاتلين أو «مستشارين» حتى، لكن هناك دولا كليبيا وإيران ولبنان، وتدفقا مُكربا للكراهية بها يُنذر ويُربك الأمريكيين كثيرا.

تتجاوز هذه الكراهية في بعض الأحيان العداء لتطال مصالح خاصة أو حركات أو سياسات أو حتى بلداناً، حتى أنها تصبح رفضا قاطعا للحضارة الغربية، رفضا لا يهم الفعل العدواني فقط، بل يشمل أيضا الرفض الكُلّي لها في المبادئ والقيم التي تمارسها وتعتز بها، إلى حد اعتبارها شرّا لا يُطاق، ويُصبح كل من يتقبلها ويعززها «عدوا لله.»

لا بد أن هذه العبارة التي تتردد كثيرا في خُطب القيادة الإيرانيّة، سواء في إجراءاتها القضائية أو في ملفوظها السياسي، وهي تبدو غريبة جدا بالنسبة إلى الغريب عنها اليوم، سواء كان علمانيّا أو متديّنا. يصعب استيعاب الفكرة القائلة بأن لله أعداء، وهو في حاجة إلى مساعدة إنسانية لتحديد هويتهم والتخلص منهم. لكنها ليست فكرة غريبة إلى ذلك الحد. فمفهوم أعداء الله مألوف في العصور العتيقة وفي العهدين القديم والجديد في الإنجيل وكذلك في القرآن، بل توجد نسخة وثيقة الصلة بهذه الفكرة في الديانات الثنويّة في إيران القديمة، والتي لا تعترف فقط بقوة خارقة واحدة، بل بقوتين اثنتين تقفان وراء نشأة الكون. فعلى الضد من الشيطان في المسيحية والإسلام واليهوديّة، ليس الشيطان الزرادشتي من مخلوقات الرب التي تؤدّي بعض المهام الغامضة للرب، إنّما هو قوة مستقلة؛ أي قوة عليا تشارك في صراع كوني ضد الإله. أثّر هذا الاعتقاد على عدد من الطوائف المسيحية والمسلمة واليهودية عبر المانوية وطرق أخرى. إنّ هذه الديانة المانويّة شبه المنسيّة أعطت اسمها في طريقة إدراك المشاكل على أنها صراعات واضحة وبسيطة بين قوى الخير الخالص والشر الخالص النّدّية.

يبقى القرآن توحيديا بكل وضوح طبعا، ويقر بإله واحد كقوة كونية واحدة فقط. ويُقرّ بوجود صراع في أفئدة الناس بين الخير والشر، وبين وصايا الإله وبين الفتّان، ويُرى هذا على أنه صراع من قبل الله يستخدم كامتحان للبشر، وليس كما في بعض الديانات الثنويّة، حيث لدى البشر دور حاسم في انتصار الخير على الشر. ورغم سمة التوحيد فيه إلا أن الإسلام تأثر في مراحل مختلفة، خصوصا في إيران، بفكرة ازدواجية الصراع الكوني بين الخير والشر، بين النور والظلام وبين النظام والفوضى وبين الحقيقة والباطل وبين الله وخصمه المعروف في مواضع مختلفة بالرجيم وإبليس والشيطان وأسماء أخرى.

ظهور دار الكفر

اتخذ الصراع بين الخير والشر في الإسلام مبكّرا أبعادا سياسية وعسكرية. وتجدر الإشارة إلى أنّ محمدا لم يكن فقط رسولا ومعلما كمؤسّسي ديانات أخرى. لقد كان أيضا على رأس كيان سياسيّ لمجتمعه كحاكم وكجندي. ومن هنا تورّط في صراعه مع الدولة وقوّاتها المسلّحة. كان المقاتلون في الحروب لصالح الإسلام، في الجهاد «في سبيل الله» يحاربون لأجل الله، يستتبع ذلك أن خصومهم يحاربون ضد الله. وبما أن الله هو مبدئيا صاحب السيادة أي الرأس الأعلى للدولة الإسلامية والرسول والخلفاء بعده هم النواب، إذن فالله كصاحب السيادة يقود الجنود؛ الجيش جيش الله والأعداء أعداء الله، وواجب جنود الله حسب نفس المنطق هو إيفاد أعداء الله بالسرعة الممكنة إلى مكان حيث سيعاقبهم الله؛ أي الآخرة. وعلى علاقة واضحة بهذا، نجد التقسيم الأساسي للبشرية كما تُرى في الإسلام. لدى معظم، أو على الأرجح كل المجتمعات الإنسانية، طريقة في التمييز بين أنفسهم وبين الآخرين: لا تُحدّد هذه التعريفات الغريب فقط، بل تُساعد في تعريف وتوضيح رؤيتنا لأنفسنا أيضا.

ففي المنظور الإسلامي الكلاسيكي، والذي يعود إليه اليوم عدد من المسلمين ينقسم العالم إلى قسمين: دار الإسلام حيث يسود القانون والإيمان الإسلاميين، والباقي معروف كدار الكفر أو دار الحرب، والتي من واجب المسلم أن يدخل الإسلام إليها. لكن الجزء الأعظم من العالم لا زال خارج الإسلام، ولقد أصبح الإسلام حتى في دار الإسلام حسب نظرة الأصوليين الإسلاميين دينا مقوّضا وأصبحت الشريعة الإسلامية بالتبع مقوضة. إنّ واجب الحرب يبدأ ضمنا في بلاد الإسلام ويستمر في الخارج ضد الكفار أعداء الله.

وككلّ حضارة عرفها التاريخ البشري رأى العالم الإسلامي نفسه مركز الحقيقة والتنوير، وهو مركزٌ محاط بالبرابرة والكفار، وكان ضمن مساحة واجبه إخضاعهم للتنوير والحضارة، لكن كان هناك فرق حاسم بين مختلف جماعات البرابرة. فالبرابرة إلى الجنوب كانوا وثنيين يؤمنون بتعدد الآلهة، ولم يشكلوا تهديدا

مهما عموما، ولم يكونوا منافسين من أية ناحية. على الضد من ذلك، وجد المسلمون في خصومهم منافسين حقيقيين في الشمال والغرب منذ القدم، خصوم ذوو ديانة دنيوية منافسة وحضارة بارزة استلهمت من ذلك الدين. كانت هناك إمبراطورية وإن كانت أقل من إمبراطورية الإسلام في القيمة، إلا أنها لم تكن أقل طموحا في ادعاءاتها وتطلعاتها. كانت هذه الجماعة هي نفسها المعروفة بالنسبة إلى نفسها وإلى الآخرين بالمسيحية، وهذا مصطلح كان لزمن طويل تقريبا مطابقا لأوروبا.

لقد طال الصراع بين هذه الأنظمة المتنافسة لمدة أربعة عشر قرنا، حيث بدأ مع تقدم الإسلام في القرن السابع الميلاديّ، واستمر عمليا حتى زمننا الحاضر. تشكل هذا الصراع من سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة على شكل جهاد وحملات صليبية وفتوحات مضادة. تقدم الإسلام للألف سنة الأولى، وكانت المسيحية ضحيته المهزومة. فتح الدين الجديد البلدان المسيحية القديمة في الشام وشمال إفريقيا واجتاح أوروبا وحكم لفترة قصيرة صقلية، وإسبانيا، والبرتغال وأجزاء من فرنسا. وصُدّت محاولة الحملات الصليبية استرجاع الأراضي المفقودة من المسيحية في الشرق. وأتمّ المسلمون التعويض عما فقدوه في جنوب غرب أوروبا باجتياح شامل داخل جنوب شرق أوروبا، وصل مرتين إلى فيينا التي كانت أبعد نقطة استطاعوا الوصول إليها. لكن منذ الثلاثمائة سنة الأخيرة منذ فشل الحصار التركي لفيينا سنة 1683م وظهور الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في آسيا وإفريقيا، كان الإسلام منذ ذلك الوقت في وضع الدفاع، ونجحت الحضارة المسيحية وما بعد المسيحية لأوروبا وبناتها في إخضاع العالم كله وضمنه الإسلام.

ظهر لوقت طويل مد معاكس ضد الغلبة الغربية، ورغبة لإعادة تأكيد القيم الإسلامية واستعادة العظمة الإسلامية. وعانى المسلم من مراحل متتالية من الهزائم؛ كان أولها ضياع سيادته على العالم لصالح القوى المتقدمة لروسيا والغرب، وكان ثانيها تقويض سلطته حتى في بلده، وشكل ذلك اجتياحا له من نواح شملت الأفكار والقوانين ونمط الحياة الغربي وأحيانا من قبل حكام ومقيمين غرباء، كما حرر الغرب عناصر محلية غير مسلمة كانت تحت سلطته. أمّا ثالثا، فقد تحدت المسيحية سلطة المسلمين داخل بيوتهم، وحررت النساء والبنين. كان الأمر أكثر مما يطيق المسلم، وتشكلت على إثر ذلك ثورة غضب في وجدانه ضد هذه القوى الغربية الكافرة وغير المفهومة التي أقضّت مضجعه وأفسدت سلطته، ومزقت مجتمعه وفي النهاية انتهكت حرمة بيته. كان من الطبيعي أيضا أن يرى أنّه يجب أن يوجّه هذا الغضب أوّلا ضد العدو الألفي (mellinnial)، ويجب أن يكتسب قوته من المعتقدات والولاءات القديمة.

قد تبدو عبارة أوروبا وبناتها غريبة على الأمريكيين، لأن أساطيرهم الوطنية منذ بداية الأمة وأقدم من ذلك، حددت هويتهم الأصلية في تعارضها مع الهوية الأوروبية كشيء جديد ومختلف جذريا عن أنماط الهوية الأوروبية العتيقة. لم تكن هذه هي الطريقة التي رأى بها الآخرون أمريكا على كل حال، لم ينظر الأوروبيون إلى أمريكا هكذا في معظم الأحيان، وبالكاد كانت هذه وجهة نظر الآخرين إليها في أماكن أخرى دائما.

وعلى الرغم من أن بشرا من أعراق مختلفة ساهموا في معظم الأوقات دون إرادة منهم في اكتشاف وخلق الأمريكيتين، كان هذا ولا زال في اعتبار باقي العالم على أنّه مشروع أوروبي، حيث سيطر الأوروبيون وسادوا ومنحوا لغتهم وتقاليدهم لها.

كانت الهجرة الطوعية إلى أمريكا تقريبا أوروبية حصرا لمدة طويلة. وكان هناك البعض ممن قدموا من الأراضي الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لكن قلة منهم كانت مسلمة، فمعظمهم كانوا جزءا من الأقليات المسيحية أو اليهودية في تلك البلدان. ولا بد أن رحيلهم إلى أمريكا وحضورهم فيها ركز صورة الأوروبي في اعتبار المسلمين.

من الملاحظ أن المسلمين لم يعرفوا عن أمريكا سوى نُزُر يسير آنذاك. أثارت رحلات الاستكشاف في البداية بعض الاهتمام. توجد نسخة وحيدة متبقية من خريطة أمريكا كما رآها كولمبوس في ترجمة تركية، لا زال مُحتفظا بها في قصر متحف توب كابّي في إسطنبول، وترك جغرافي تركي خلال القرن السادس عشر تقريرا حول اكتشاف العالم الجديد تحت عنوان «تاريخ الهند الغربية»، وكان هذا العمل أحد أول الكتب المطبوعة في تركيا. لكنّ هذا الاهتمام ضعُف بالتدريج منذ ذلك الحين، ولم يُقل الكثير حول أمريكا لا في اللغة التركية ولا في العربية ولا في لغات إسلامية أخرى حتى وقت متأخّر نسبيا، باستثناء ما كتبه سفير مغربيّ كان في إسبانيا آنذاك، والذي كتب ما يبدو أنه كان التقرير العربي الأول عن الثورة الأمريكية. بعد ذلك وقع السلطان المغربي معاهدة سلام وصداقة مع الولايات المتحدة في 1787. منذ ذلك الحين كان للجمهورية الجديدة صلات تعامل مع المسلمين بعضها ودي والآخر عدائي، ومعظمه تجاري مع دول إسلامية أخرى. ويبدو أن هذه العلاقات الأولى لم يكن لها تأثير على الجانبين. بقيت الجمهورية الأمريكية والثورة الأمريكية التي منحتها المولد غير ملاحظة وغير معروفة. فحتى الحضور الأمريكي القليل، والذي أخذ يتعاظم في الأراضي الإسلامية في القرن التاسع عشر من تجار ومستشارين ومبشرين ومدرسين أثار القليل من الفضول، وبقي غير مذكور في الأدب الإسلامي والجرائد آنذاك، إلى أن أحضرت الحرب العالمية الثانية وصناعة البترول وتطورات ما بعد الحرب عددا من الأمريكيين إلى الأراضي الإسلامية. وقدم

عدد متزايد أيضا من المسلمين إلى أمريكا، أولا كطلبة، ولاحقا كأساتذة ورجال أعمال أو زوار، وأخيرا كمهاجرين. وأدخلت السينما والتلفزيون المعاصر نمط الحياة الأمريكي أو على كل حال نسخة معينة منه إلى بيوت ملايين لا تحصى، والذين لم يكن اسم أمريكا يعني لهم شيئاً. وصلت مجموعة كبيرة من المنتجات الأمريكية إلى الأسواق الإسلامية كلها، خصوصا في السنين التي تلت الحرب العالمية الثانية، وهي المرحلة التي عرفت اضمحلال المنافسة الأوروبية، ولم تكن المنافسة اليابانية يومها قد بلغت بعدُ إلى مستواها الحالي. حظِيت هذه المنتجات بزبائن جدد، والأدهى ربما هو أنها خلقت أذواقا جديدة. مثّلت أمريكا الحرية والعدالة والفرص للبعض، وجسدت الثروة والسلطة والنجاح للبعض الآخر في زمن لم تكن هذه الخصائص تعتبر فيه خطايا أو جرائم.

ثم قدم التغير المهمّ، عندما بحث قادة البعث والإحياء الديني المنتشر والمتوسع وحددوا أعداءهم على أنهم أعداء الله وأعطوهم «اسما ومكانا محليا للإقامة» في النصف الغربي من الكرة الأرضية. فجأة أو هكذا بدا الأمر، أصبحت أمريكا العدو اللدود الذي يُجسد الشر، أو هو الخصم الشيطاني لكل ما هو خيّر وخاصة للمسلمين والإسلام. لماذا؟

بعض الاتهامات المألوفة

من بين مكونات المزاج المعادي للغرب، أو تحديدا المعادي لأمريكا هناك بعض التأثيرات الثقافية القادمة من أوروبا. وقدِم أحدها من ألمانيا، حيث شكلت النظرة السلبية لأمريكا جزءا من مدرسة أفكار لم تكن محدودة في النازية بأي حال من الأحوال، بل ضمت كتاب مختلفين كراينر ماريا ريلكيه، وإرنستيونغر ومارتن هيدغر. من هذا المنظور كانت أمريكا المثال المطلق لحضارة دون ثقافة، غنية ومريحة، متقدمة ماديا لكنها زائفة ولا إنسانية، جُمعت أو في أحسن الأحوال بُنيت ولم تنمُ طبيعيا، كما أنها ميكانيكية وليست عضوية، ومتطورة تكنولوجيا لكن تنقصها الروحانية والحيوية اللّتين تتميز بهما الثقافة الوطنية الإنسانية الألمانية ذات الجذور، أو ثقافة شعوب «أصيلة» أخرى. وقد حظيت الفلسفة الألمانية وخصوصا فلسفة التعليم برواج واضح بين العرب والمثقفين المسلمين في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، وكانت معاداة أمريكا الفلسفية جزءا من الرسالة.

وبعد انهيار الرايخ الثالث والنهاية المؤقتة للتأثير الألماني، أخذت مكانها فلسفة أكثر عداء لأمريكا، وأتحدث هنا عن النسخة السوفيتية من الماركسية التي رفضت الرأسمالية الغربية وأمريكا كتجسيدها الأكثر تقدما وخطورة. وعندما ضعف التأثير السوفيتي برز إلى العلن تأثير آخر أخذ مكانه أو أكمل مساره، وهو

السحر الجديد للعالم- ثالثية التي ظهرت في أوروبا الغربية، خصوصا في فرنسا، ولاحقا في الولايات المتحدة أيضا والتي تتكسب من الفلسفتين السابقتين. تمت مساعدة هذا السحر من خلال الميول البشرية الكونية لخلق العصر الذهبي في الماضي، وخصوصا النزوع الأوروبي لموقعته في مكان آخر. ووضع البديل الجديد لأسطورة العصر الذهبي القديم الأمر في العالم الثالث، حيث تم تخريب براءة آدم وحواء غير الغربيين من قبل الأفعى الأوروبية. وأخذت هذه النظرة طيبة وبراءة الشرق وشر الغرب الذي يمتد في منحاه من أوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة كشيء بديهي. لقد سقطت هذه الأفكار سهوا في أرض خصبة، وتمكنت من حصد تأييد واسع النطاق.

لكن رغم أنّ هذه الفلسفات المستوردة ساعدت في تقديم التعبير الثقافي لمعاداة الغرب ومعاداة أمريكا، إلاّ أنها لم تكن السبب العقلاني خلفها وبالتأكيد لم تحظ بتفسير أسباب معاداة الغرب المنتشرة التي جعلت الكثيرين في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى في العالم الإسلامي أكثر تقبلا لهذه الأفكار.

يجب أن نوضح أن سبب المساندة التي حصدتها الشعارات المختلفة المعادية للغرب لم تكن نظرية العرق النازية، والتي كانت جاذبيتها ضعيفة كلما تعلق الأمر بالعرب أو الشيوعية السوفيتية الملحدة، والتي لم يكن لها أيضا جاذبية في علاقتها بالمسلمين. لكن معاداة الغرب المشتركة بينهم هي التي كانت سببا مباشرا في هذا. كانت النازية والشيوعية أهم القوى المعادية للغرب، فكلاهما شكل نمط حياة وسلطة مُبهرة في العالم، وهكذا تمكنوا من أن يعتمدوا على الأقل على تعاطف، إن لم نقل مساندة هؤلاء ممن رأوا في الغرب العدو الأساسي.

لكن لم العدائية في المقام الأول؟ إن تحولنا من العام إلى الخاص، هنالك اليوم وفرة في السياسات أو الحركات المناوئة التي تتبع وتنفذ قرارات تُمليها حكومات غربية، وتثير الحنق العارم لدى الشرق أوسطيين والشعوب الإسلامية الأخرى. لكن في الكثير من الأحيان، عندما تُنبذ هذه السياسات وتُحل المشاكل، تخف وطأة الغضب قليلا مؤقتا. لقد غادر الفرنسيون الجزائر، وغادر البريطانيون مصر، وغادرت شركات البترول الغربية آبار النفط، وغادر الشاه الداعي إلى التغريب إيران، لكن الكراهية العامة من قبل الأصوليين والمتطرفين ضد الغرب وأصدقائه تبقى وتتعاظم ولم يخْبُ أوار نارها بعد.

يُقدّمُ سبب التعصب ضد أمريكا بين المسلمين اليوم على أنه مساندة أمريكا لإسرائيل، ويبقى هذا العامل مهما جدا، وترتفع نسبته مع القرب الجغرافي للقضية ونِسبُ تورط دول أخرى في القضية. لكن هنا نجد مجددا بعض الغرائب العصية على التفسير. ففي بداية تأسيس إسرائيل، وبينما حافظت الولايات المتحدة على الحياد، منح الاتحاد السوفيتي اعترافه ودعمه لإسرائيل بحكم القانون مباشرة. وأنقذت أسلحة أُرسلت

من قبل تشيكوسلوفاكيا، وهي الدولة التابعة للاتحاد السوفيتي الدولة الإسرائيلية من الهزيمة والموت في أسابيع حياتها الأولى. يبدو رغم ذلك أنه لم يوجد سوء نية ضد السوفيات بسبب هذه السياسات ولم تظهر في المقابل أية نية خيرة تجاه الولايات المتحدة بسبب ذلك. في سنة 1956 كان تدخل الولايات المتحدة بقوة وحزم هو ما أمّن انسحاب القوات الإسرائيلية، والبريطانية والفرنسية من مصر. وحتى أواخر الخمسينيات والستينيات قصد حكام مصر وسوريا والعراق ودول أخرى الاتحاد السوفيتي لاقتناء الأسلحة، وشكلوا وثاق التضامن معه في الأمم المتحدة وفي العالم عموما. وقدم حكام الجمهورية الإسلامية الإيرانية حديثا الموقف الأكثر مبدئية والشجب الأكثر تصلبا لإسرائيل والصهيونية. ومع ذلك، حتى هؤلاء قبل وفاة آية الله روح الله الخميني وبعده، عندما قرروا لأسباب تخصهم الدخول في حوار من نوع ما، وجدوا أنه من السهل الحديث مع القدس أكثر من واشنطن. في ذات الوقت اعتُبر الرهائن الغربيون في لبنان، ومعظمهم كرس حياته للقضايا العربية وبعضهم تحول إلى الإسلام، من قبل آسريهم على أنهم أذرع الشيطان الأكبر.

يقدم المعارضون المسلمون تفسيرا آخر يعزو الشعور بمعاداة أمريكا لمساندتها للأنظمة المُبغَضة، التي تُرى على أنها رجعية من قبل الراديكاليين وغير تقية من قبل المحافظين، وكفاسدة ومستبدة من قبلهما معا. إنّ بهذا الاتهام شيء من الصدق وقد يساعد في تفسير سؤال: لم يجب على حركة مناوئة موجهة داخليا ومعادية للقومية أن تدير ظهرها لقوى خارجية؟. لكنّ هذا لا يكفي، خاصة وأن دعم هذه الأنظمة كان يقتصر على نطاق يضيق، ويصبح أقل فاعلية كما اكتشف الشاه.

إنّ في الأمر بوضوح شيئا أكثر عمقا من هذه الشكاوى المتعددة والمهمة، وأقصد شيئا أعمق من هذا، شيئا يجعل من كل سوء تفاهم مشكلا يصعُبُ حله.

هذا التغير ضد أمريكا وضد الغرب عموما ليس محدودا بأي حال من الأحوال في العالم الإسلامي، ولم يجرب المسلمون أو يظهروا باستثناء الملالي الإيرانيين وتلامذتهم في أمكنة أخرى أشكالا من هذا الشعور المعادي الخبيث. أثّر مزاج الوهم والعدائية على أجزاء أخرى من العالم ووصل إلى عناصر داخل الولايات المتحدة حتى، ومن هؤلاء نجد من يتحدثون باسمهم ويدعون الحديث باسم مضطهدي العالم الثالث، ممن يقدمون التفسير والتبرير لطرح رفض الحضارة الغربية وقيمها.

إن هذه الاتهامات مألوفة. نحن في الغرب متهمون بالتمييز الجنسي، وبالعنصرية وبالإمبريالية. وبحضور هذه الاتهامات وأخرى شائنة مثلها لم يبق لدينا خيار سوى أن نرد بأننا مذنبون، ليس كأمريكيين، وليس أيضا كغربيين، لكن كبشر ببساطة. لسنا الوحيدين في اقتراف كل من هذه الآثام، ونحن أبعد ما نكون عن الأسوأ في بعضها. لقد كانت معاملة المرأة في العالم الغربي والمسيحي عموما غير مساوية وجائرة، لكن

حتى في صورها الأكثر قتامة كان الوضع أفضل من قاعدة تعدد الزوجات ونظام اتخاذ المحظيات، والذي كان نصيب المرأة عموما على هذا الكوكب.

هل العنصرية إذا هي التّظلّم الأساسي؟ تؤثر الكلمة بشكل مهم في الدعاية الموجهة للمشاهد في أوروبا الغربية والشرقية وسكان العالم الثالث، لكنها لا تؤثر بنفس القدر فيما يُكتب ويُنشر للاستهلاك المنزلي، وقد أصبحت مصطلحا عاما وغير ذي معنى يُستخدم للقدح كما هو الحال مع مصطلح «الفاشية»، والتي تُستعمل للإحالة على المعارضين حتى من قبل الناطقين باسم الديكتاتوريات الوطنية ذات الحزب الواحد مهما اختلفت ألوان بشرة أهلها وأقمصة دعايتها.

أضحت العبودية جريمة كونية ضد الإنسانية، لكن داخل الذاكرة الحية كانت العبودية تمارس ويدافعُ عنها كمؤسسة ضرورية قائمة على قوانين إلهية. إن ميزة المؤسسة الخاصة تبقى في إلغائها وليس في وجودها. كان الغرب سباقا إلى فضّ جماعة قبول هذه المؤسسة وطرح لا قانونيتها في بلدانه وفي مناطق كانت تحت سيطرته ولاحقا في كل بقاع العالم، حيث وصلت سلطته وتأثيره بصيغة أخرى عن طريق الإمبريالية.

هل الإمبريالية إذن المظلمة الأساس؟ كانت بعض السلطات الغربية وبمعنى آخر الحضارة الغربية ككل متهمة بالإمبريالية، لكن هل لنا أن نعتقد حقا أن توسعات قبْلية نسبيا بريئة كتوسعات العرب أو المنغوليين أو العثمانيين، أو في توسعات قريبة كتلك التي أحضرت حكام موسكوفي[1] إلى البلطيق والبحر الأسود أو بحر قزوين أو الكوش الهندوسية[2] والمحيط الهادي لم تشهد ممارسات مماثلة؟ كان الغرب في ممارسته للتمييز الجنسي والعنصرية والإمبريالية يتبع فقط الممارسة الشائعة لدى البشرية عبر ألفية التاريخ المسجل، بل كان يتميز عن باقي الحضارات الأخرى في معرفته بها، وتسميته لها، وفي محاولته ليس دون نجاح تماما لشفاء هذه الأسقام التاريخية. وهذا بالتأكيد مدعاة للفخر، وليس الشجب. لا يمكننا أن نحمل مسؤولية أمراض الزهايمر والباركنسون لكل من الدكتورين ألزهايمر وباركنسون أو العلوم الطبية الغربية لكونهما شخّصا هذين المرضين وأعطوهما اسميهما.

نجد من بين كل هذه الجُنح واحدة مشجوبة بقوة وواسعة الانتشار، وهي الإمبريالية، أحيانا الغربية فقط وأحيانا الشرقية (أي السوفيتية) والغربية معا. لكن الطريقة التي يستعمل بها هذا المصطلح في الأدب الأصولي تقترح أحيانا أنه لا يحتمل نفس المعنى بالنسبة إلى الكل كما النقاد الغربيين. ففي عدد من كتابات هؤلاء يستعمل مصطلح «الإمبريالي» ليحيل على بعد ديني، وأحيانا أخرى كمرادف «للمبشّر»، ويعني

1- مقاطعة تقع في وسط روسيا قريبة من موسكو- كان لها أمراء أصبحوا قياصرة بعد توسعهم واستتباب ملكهم.

2- سلسلة جبال في شمال باكستان وأفغانستان التي تشكل الاستمرار الغربي للهملايا.

شكلا من الهجوم يشمل الصليبية وكذلك الإمبراطوريات الاستعمارية الحديثة. يحصل لدينا أحيانا الانطباع بأن تهمة الإمبريالية ليست، كما بالنسبة إلى النقاد الغربيين، سيطرة شعب على شعب، لكن تعني منح الأدوار في هذه العلاقة. وما يبقى شرا مطلقا وأمرا غير مقبول هو هيمنة الكفار على المؤمنين الحقيقيين. إن الحكم على غير المؤمنين بالنسبة إلى المؤمنين الحقيقيين أمر مناسب وطبيعي، لأن هذا يساند تطبيق الشريعة ويمنح غير المؤمنين الفرصة والحافز لاعتناق الدين الحق. لكن الحكم على المؤمنين الحقيقيين بالنسبة إلى المؤمنين بالباطل أمر كافر ومشين وغير طبيعي، لأن هذا يؤدي إلى فساد الدين والأخلاق في المجتمع وإلى الاستهزاء بالتشريعات الإلهية أو إلغائها. قد يساعدنا هذا على فهم المشاكل الحالية (نشرت المقالة في 1990) في أماكن مختلفة كإيريتريا الإثيوبية، وكشمير الهندية، وسينكيانغ الصينية، وكوسوفو اليوغسلافية، حيث تُحكم ساكنة مسلمة من قبل حكومات غير مسلمة فيها. قد يفسر هذا أيضا لم يطالب متحدثون باسم الأقليات المسلمة في أوروبا بدرجة من الحماية القانونية لا تمنحها حكوماتهم للمسيحية ولم تمنحها يوما لليهودية، ولم تمنحها الحكومات الأصلية لهؤلاء المتحدثين يوما لغير ديانتهم. ليس هناك تضاد في نظرهم في هذه المواقف. يجب أن يُحمى الدين الحق المؤسس على وحي الإله الأخير من الإهانة وسوء المعاملة، بينما تدخل ديانات أخرى خانة الباطل والمُحرّف وبالتالي يُمنعُ عنها الحق في مثل هذه الحماية.

هنالك صعوبات أخرى في فهم الإمبريالية كتفسير للعداء الإسلامي، حتى إن عرّفنا الإمبريالية بمفهومها الخاص والضيق على أنها اجتياح وسيطرة دول غير مسلمة على دول مسلمة. إن كانت العدوانية موجهة ضد الإمبريالية بهذا المعنى، لم تقوّت إذن ضد أوروبا الغربية التي تخلت عن ممتلكاتها والدول التابعة لها أكثر مما فعلت ضد روسيا التي ما زالت تحكم بيد من حديد على الملايين من المسلمين الرافضين لها وعلى مدن وبلدان مسلمة؟ لم يجب أن يتضمن توصيف القوى الإمبريالية الولايات المتحدة، وهي البلد الذي، إن استثنينا تدخله الوجيز في منطقة في الفلبين ذات الأقلية المسلمة، لم يحكم أية منطقة ذات ساكنة مسلمة؟ إن الإمبراطورية الأوروبية التي ما زالت تحكم مناطق مسلمة هي الاتحاد السوفيتي، وبعيدا عن أن تكون هدفا للنقد، تم استثناؤها تقريبا. حتى وأد الثورات المسلمة في الجمهوريات الإسلامية الجنوبية والوسطى من آسيا للاتحاد السوفيتي لم تحظ سوى بالقليل من الإدانة المضادة مع تنصل من أية رغبة في التدخل في ما يدعى بطرافة «الشؤون الداخلية» للاتحاد السوفيتي وطلب الحفاظ على الحدود وضبط النفس فيما يخصها.

إن أحد أسباب ضبط النفس المفاجئ هذا يوجد في طبيعة الأحداث في أذربيجان السوفيتية، إذ يبقى الإسلام هناك عنصرا مهما ويقوّي معنى الهوية في أذربيجان بكل وضوح، لكنه ليس عنصرا طاغيا، وللحركة الأذربيجانية قطب تشارك مع الوطنية الليبرالية الأوروبية أكثر من الأصولية الإسلامية. لن تثير

حركة كهذه تعاطف حكام الجمهورية الإسلامية. قد تنذرهم، لأن الدولة الوطنية الديمقراطية الأصيلة التي تحكم من قبل شعب أذربيجان السوفيتي ستمارس جذبا قويا لذوي قرابتهم في الجنوب في أذربيجان الإيرانية.

هنالك سبب آخر لقلة الاهتمام بخمسين مليون مسلم أو أكثر تحت الحكم السوفيتي، وهذا حساب أتى عن سبق معرفة بالمخاطر والامتيازات. إن الاتحاد السوفيتي قريب من الحدود الشمالية لتركيا وإيران وأفغانستان، بينما أمريكا وحتى أوروبا الغربية تبقى بعيدة. وعلى علاقة أكثر بهذه النقطة، لم يكن مدفع الماء والرصاص المطاطي في حضور كاميرات التلفزيون ممارسة للتهدئة عند السوفيات أو لإطلاق سراح المعتقلين بكفالة والسماح لهم بالحديث مع الإعلام الداخلي والخارجي. لا يستجوب السوفيات أقسى منتقديهم في وقت الذروة، أو يغرونهم بالتدريس والمحاضرة والكتابة. على الضد من ذلك، قد تكون طرقهم في إظهار عدم رضاهم على النقد معظم الأوقات غير مرضية.

لكن الخوف من الانتقام ليس هو السبب الوحيد أو ربما حتى السبب الأساس للمكان الثانوي الذي يشغله الاتحاد السوفيتي مقارنة مع الغرب في إظهار الأصوليين كشياطين. ظهرت هذه التغيرات الاجتماعية، والثقافية والاقتصادية التي حولت معظم العالم الإسلامي، وأثارت الشرور الغربية المشجوبة كالاستهلاك والعلمانية في الغرب وليس في الاتحاد السوفيتي. لا أحد يستطيع اتهام السوفيات بالاستهلاك، فماديتهم فلسفية أو جدلية حتى نكون أكثر دقة، وليست لها علاقة في الممارسة بتقديم الأشياء الجيدة في الحياة. هذه المؤن تمثل نوعا آخر من المادية، والتي توصف غالبا بالمادية. إنها تصنف مع الغرب وليس مع الشرق الشيوعي الذي مارس أو فرض على الأقل على مواطنيه درجة من التقشف كانت لتفاجئ وليّا صوفيا.

لم يكن السوفيات حتى حديثا موضوع اتهامات بالعلمنة، وهي الاتهام الأصولي الآخر ضد الغرب. رغم كونهم ملحدين إلا أنهم لم يكونوا بدون إله. لقد أقاموا في الواقع جهاز دولة محبوك لفرض عبادة آلهتهم، جهاز مع أُرثوذوكسيته وتراتبية لتحديده وتقويته، ومحاكم تفتيش مسلحة لضبط الهرطقة واستئصالها. إن فصل الدين عن الدولة لا يعني تأسيس اللادين من قبل الدولة، ويُعتبر فرض فلسفة ضد الدين أقل تمنطُقا بالقوة. إن العلمانية الروسية كما الاستهلاك الروسي لا جاذبية فيها للعامة المسلمين، ولا تعني شيئا لدى المثقفين المسلمين. تقدم الرأسمالية والديمقراطية الغربية اليوم أكثر من أي وقت مضى بديلا أصيلا وجذابا عن طرق التفكير والحياة التقليديين. لم يخطئ القادة الأصوليون حين رأوا في الحضارة الغربية التحدي الأكبر لنمط الحياة التي يريدون استعادته لشعوبهم.

صراع حضارات

يمكن العثور على أصول العلمانية في الغرب في ظرفين اثنين: في التعاليم المسيحية المبكرة، وأكثر من ذلك في التجربة المسيحية التي خلقت مؤسستين اثنتين، الكنيسة والدولة، والتي دفعت بالاثنين إلى احتلال قطبين مختلفين في صراعات مسيحية متأخرة. كان لدى المسلمين أيضا صراعات دينية، لكن لم يكن هناك شيء قريب من شراسة الصراع المسيحي بين البروتستانت والكاثوليك، وهو الصراع الذي حطم أوروبا المسيحية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأدى إلى تطوير شعار فصل الدين عن الدولة كخيار أخير. بدا آنذاك أن المسيحيين استطاعوا الحد من التعصب الدموي والاضطهاد الذي فرضه المسيحيون على أتباع ديانات أخرى فقط بحرمان المؤسسات الدينية، وأكثر من ذلك من اعتنقوا أشكالا مخالفة من الدين داخل أوروبا.

لم يكن المسلمون يوما بحاجة إلى هذا الشعار ولا إلى تطويره. لم يحصل في الإسلام حاجة إلى العلمانية، فحتى التعدد الديني كان مختلفا عن ذلك الموجود في الإمبراطورية الرومانية الوثنية، التي وصفها إدوارد جيبّون بدقة، عندما لاحظ أن «طرائق التعبد المتعددة التي سادت في العالم الروماني اعتبرت من قبل كل الناس متساوية، واعتبرت من قبل الفيلسوف باطلة، واعتبرت من قبل القضاة فعالة»، لم يكن الإسلام مستعدا نظريا أو تطبيقيا لمنح المساواة لمن يحمل معتقدات مختلفة ولمن مارسوا طرائق تعبد مغايرة. لكنه منح لحملة الرسالة المحرفة درجة من التسامح النظري والتطبيقي لم يوجد في الغرب إلى حدود تبني الغرب مقياسا من العلمانية في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر.

كان رد المسلمين على الحضارة الغربية في البداية ردّ إعجاب ورغبة في التقليد، أتى هذا على شكل تقدير بالغ لما حققه الغرب، وصاحبَتْهُ رغبة عارمة في تقليده وتبنيه. ظهرت هذه الرغبة من وعي رصين ومتزايد بضعف العالم الإسلامي وفقره وتخلفه مقارنة مع الغرب المتقدم. بدا الفرق واضحا أولا في أرض المعركة، وعمّ أشكالا أخرى من النشاط الإنساني. لاحظ الكتاب المسلمون ووصفوا رفاهية الغرب، وقوته وعلومه وتكنولوجيته، ومصانعه وأشكال حكمه. ونَظر لمدة إلى سر نجاح الغرب على أنه نابع من إنجازين: التقدم الاقتصادي وخصوصا الصناعة، والمؤسسات السياسية وخصوصا الحرية. حاول أجيال من المصلحين والمحدّثين تبنّي هذين المُثُلين وتقديمهما لبلدانهم على أمل أن يتمكنوا من تحقيق المساواة مع الغرب وربما استعادة تفوقهم.

لكن عُوّض مزاج الإعجاب والتقليد هذا بمزاج الرفض والعداء، ويعود ذلك في جزء مهم منه إلى الإذلال، وإلى إحساس متزايد بين ورثة حضارة قديمة وفخورة بأنهم أُخذوا على حين غرة، وتجاوزهم

من نظروا إليه البارحة على أنه أدنى منزلة منهم. يعود هذا الشعور في جزء مهم منه إلى أحداث في العالم الغربي نفسه، إلى عامل كانت له أهمية قصوى. كان دون شك تأثير حربين انتحاريتين دمرت فيهما الحضارة الغربية نفسها، مؤدية بنفسها إلى دمار هائل لشعوبها ولشعوب أخرى، حيث قامت الدول المتحاربة بجهود دعاية عظيمة في العالم الإسلامي وفي أماكن أخرى لفضح وتقويض بعضها البعض.

وصلت الرسالة إلى أسماع العديدين، حيث بدوا أكثر من مستعدين للإجابة بأن تجربتهم للطرق الأوروبية لم تجلب السعادة. والحال أن إدخال المناهج الغربية للتجارة والتسيير المالي والصناعة أدى إلى رفاه عظيم، لكن استفاد من هذا الرفاه غربيون متنقلون وأعضاء للقلة المغرّبة وقلة قليلة من عامة المسلمين. وتعاظم عدد هذه القلة مع الوقت، لكنهم بقوا معزولين عن العامة، مختلفين عنهم حتى في لباسهم ونمط حياتهم، واعتُبروا في الأخير وكلاء ومتعاونين مع ما كان يُعتبر عالما معاديا. حتى المؤسسات السياسية التي استُقدمت من الغرب تم تشويه سمعتها، وحُكم عليها ليس بأصولها الغربية ولكن بأشكال تقليدها المحلية، والتي بنيت من قبل المصلحين المتحمسين، وكان هؤلاء هم من عملوا في وضع بعيد عن سيطرتهم، واستعملوا مناهج غير ملائمة مُستقدمة من الغرب، وهذه مناهج لم تُفهم جيدا، فقد كانوا غير قادرين على التعامل مع الأزمات سريعة النمو وتم طردهم واحدا بعد آخر. وبالنسبة إلى عدد من الشرق أوسطيين، أحضرت الأنماط الاقتصادية الغربية الفقر، وأدت الأنماط السياسية الغربية إلى الاستبداد، وحتى نمط الحروب الغربية أدى إلى الهزيمة. من المفاجئ أن الكثيرين كانوا مذعنين للأصوات التي تخبرهم أن الأنماط الإسلامية كانت الأفضل، وأن خلاصهم تخلّى عنه المصلحون بترقيعاتهم الوثنية، وأنهم يجب أن يعودوا إلى الطريق الحقيقي الذي وصفه الله لشعبه.

إن صراع الأصوليين في النهاية هو صراع ضد عدوين: العلمانية والحداثة. وإن الحرب ضد العلمانية واعية وواضحة، وهناك الآن أدب كامل يبخّس من قيمة العلمانية كقوة شريرة ووثنية جديدة في العالم الحديث، ويعزو كُتّاب هذا الأدب العلمانية إلى اليهود والغرب والولايات المتحدة. لكن الحرب مع الحداثة ليست واعية ولا واضحة، وتوجه ضد مسار التحول الذي أخذ مجراه في العالم الإسلامي في القرن الماضي أو أكثر، وهذا مسار حول البُنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول المسلمة. أعطت الأصولية الإسلامية هدفا وشكلا للكراهية العمياء وكذلك للغضب العام الإسلامي تجاه القوى التي خربت قيمهم وولاءاتهم التقليدية، وسرقت منهم في آخر الأمر معتقداتهم وتطلعاتهم وكرامتهم وقوتهم إلى حد معقول.

هناك شيء في الثقافة الدينية للإسلام، والتي ألهمت في الفلاح المتواضع والبائع المتجول الكرامة والكياسة تجاه الآخرين، ولم تُتجاوز أو تضاهى في حضارات أخرى. لكن في أوقات الثورات والقطيعة،

وعندما تُثار العواطف العميقة، تترك هذه الكرامة والكياسة المجال لخليط متفجر من الغضب يدعو حتى حكومة بلد عريق ومتحضر، حتى المتحدث باسم الديانة الأخلاقية والروحية العظيمة لتقبل الخطف والتقتيل. إنهم يُجاهرون اليوم بالدعوة للبحث في حياة رسولهم الموافقة وحتى السبق في مثل هذه الأفعال.

لم تُخطئ بديهة العامة في تحديد المصدر النهائي لهذه التغييرات المهولة، وفي القول بأن اضطراب أنماط حياتهم التقليدية يعود للتأثير والسيطرة الغربيتين، أو التأثير الغربي أو المبدأ الغربي، وبما أن الولايات المتحدة هي الوريث الشرعي للحضارة الغربية والقائد المُجمعُ عليه المعترف به للغرب، فقد ورثت المظالم الناتجة عن القيادة، وأصبحت هدفا للغضب والكراهية المكبوتين. قد يكفي إيراد مثلين على هذا. في نوفمبر 1979 هاجم حشد غاضب سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد في باكستان وأحرقها. كان السبب المُفسر لغضب الحشد الاستيلاء على الجامع الأكبر في مكة من قبل مجموعة إسلاميين معارضين، وهذا حدث لم يثبُت تورط الأمريكيين فيه لأي سبب. وهوجم عشرة أعوام تقريبا بعد ذلك في فبراير من سنة 1989 وأيضا في إسلام آباد مركز (USIS) من قبل حشد من الغاضبين، هذه المرة احتجاجا على نشر **آيات شيطانية** لسلمان رشدي، ورشدي مواطن بريطاني من أصل هندي، كان نشْرُ كتابه قد سبق بخمسة أشهر في إنجلترا، لكن ما أثار غضب الحشود وغضب آية الله الخميني الذي أصدر فتوى القتل على الكاتب، كان نشر كتابه في الولايات المتحدة.

يجب أن يكون من الواضح اليوم أننا نواجه مزاجا وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتبع هذه السياسات. إن هذا صراع لا يقل شأنا عن صراع حضارات، لعله غير عقلاني، لكنه رد فعل تاريخي لمنافس قديم ضد إرثنا المسيحي اليهودي، ضد حاضرنا العلماني وضد التوسع العالمي لكليهما. إنه لمن المهم جدا أن لا نُدفع من جانبنا إلى رد الفعل على هذا المنافس؛ رد سيكون تاريخيا وغير عقلاني أيضا.

لم تُرفض كل الأفكار المستوردة من الغرب من قبل متدخلين غربيين أو مغربين (westernisers) محليين، فبعضها قُبل حتى من قبل الأصوليين الإسلاميين الأكثر أصولية غالبا دون اعتراف بالمصدر، وقد أحدثت هذه الأفكار تغييرات هائلة لكنها بقيت غريبة. وإحداها الحرية السياسية والأفكار والممارسات المصاحبة كالتمثيل النيابي والانتخابات والحكومات الدستورية. فحتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية لديها دستور ومجلس نيابي منتخب، وكذلك الأسقفية التي ليس لها سبق في التعاليم أو الماضي الإسلاميين. كل هذه المؤسسات مستوردة من نماذج غربية. لدول مسلمة أخرى عدد من العادات الثقافية والاجتماعية الغربية والرموز التي تعبر عنها كشكل وأسلوب لباس الذكر (ولدرجة أقل الأنثى) خاصة في الجيش. يبقى استعمال

الرشاشات والمدافع والطائرات التي اختُرعت في الغرب ضرورة في الجيش، لكن الاستعمال المتواصل للسترات المجهزة والقبعات يبقى خيارا ثقافيا. حافظت الأفكار الغربية عبر مكوناتها من الدستور إلى كوكا كولا، ومن المدافع إلى التلفزيون وإلى الأقمصة، وإلى الرموز والتحف الفنية، حافظت بل قوّت من جاذبيتها.

ليست الحركة التي تُدعى الأصوليّة التقليد الإسلامي الوحيد. هناك تقاليد إسلامية أخرى أكثر تسامحا وأكثر انفتاحا وقد ساعدت في إلهام الإنجازات العظيمة للحضارة الإسلامية في الماضي. ولعلنا نأمل أن تسود هذه التقاليد وأخرى مشابهة لها مع الزمن. لكن قبل أن نحسم الأمر في هذه القضية سيكون هناك صراع مرير حيث بإمكاننا في الغرب أن نفعل القليل بصدده، قد تؤذي المحاولة حتى، لأن هذه قضايا يجب أن يقرر بشأنها المسلمون أنفسهم. وخلال ذلك يجب أن نحذر من كل الجوانب لتفادي خطر مرحلة جديدة من الحروب الدينية، والتي تُثار من تفاقم الاختلافات وإثارة النعرات القديمة.

ولهذه الغاية يجب أن نجاهد للحصول على تقدير مناسب لثقافات دينية وسياسية مختلفة، عبر دراسة تاريخها وأدبها وإنجازاتها في ذات الوقت، لعلنا نأمل أن يحاولوا الوصول إلى فهم أفضل لثقافتنا، وخصوصا ضرورة فهمهم واحترامهم لمنظورنا الغربي والعلاقة عندنا بين الدين والسياسة، حتى إن لم يختاروا تبني ذلك لأنفسهم.

لوصف هذا المنظور سأنهي كما بدأت، باقتباس من رئيس أمريكي، هذه المرة ليس المحتفى به عن استحقاق توماس جيفرسون، لكن برئيس مغيب نسبيا وهو جون تايلر، والذي أعطى تعبيرا فصيحا وتنبؤيا لمبدأ حرية التدين في رسالة تعود إلى 10 يوليوز 1843.

«دخلت الولايات المتحدة مغامرة في سبيل تجربة عظيمة ونبيلة، خاطرت فيها في غياب السبق بالفصل التام بين الدين والدولة. ليس هناك مؤسسة دينية توجد بيننا بموجب القانون. لقد حُرّر الضمير من القيود وللكل الحق في التعبد لخالقه بالطريقة التي تناسبه. إن مؤسسات الحكومة مفتوحة للجميع على قدم المساواة. ليس هنالك عشور تُجمع باسم الدين لدعم تراتبية مؤسسية، وليس للحكم الإنساني المخطئ أن يُقيم كمعتقد متأكد منه وغير خاطئ أيضا. إن أراد المُحمّدي العيش بيننا سيحصل على امتياز مضمون له من قبل الدستور بأن يتعبد حسب القرآن. وللشرقي الهندي أن يُقيم معبدا للبراهما إن لدّ له أن يفعل ذلك. هذه هي روح التسامح كما تأمر بها مؤسساتنا السياسية...يمكن لليهودي المضطهد والمُداس عليه في مناطق أخرى أن يقيم بين ظُهرانينا دون خوف من أحد...ودرع الحكومة فوقه للدفاع عنه وحمايته. هذه هي التجربة العظيمة التي حاولنا تحقيقها هنا، وهذه هي الثمار السعيدة التي نتجت عنها، نظام حكمنا الحر سيكون غير كامل بدونها.

للجسد أن يُحتقر ويصفّد وله أن ينجو، لكن إن قُيّد عقل الإنسان، فإن طاقته وملكاته تفني. وما يبقى من الأرض، أرضي. يجب أن يبقى العقل حرا كما النور والهواء».

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018